الأديب الأستاذ ماهر الحاج علي

تعالوا نتذكر: طازة يا كعك

ألفيتُه على الطريق متعثراً وصينيةُ الكعك تترنَّحُ فوق رأسه... كان الصمت يحتويه وعينُ الشمس تُبصره، وتضمُ الأرضُ، أرصفةً وإسفلتاً،قدميه الصغيرتين.

كان عبدُ الله يمشي، وعنقُه المشدودُ، يوجّه النظرات صوب الأطفال وهم يحملون حقائبهم ويسارعون الى المدرسة ، تحملهم نشوة البراءة المُدلّلة...أنه يرى من بعيد أشكال أحذيتهم التي تكسو أقدامهم الناعمة...بينما نار الإسفلت تكوي قدميه، فيرفع الكعبين حيناً وأصابيعَ القدمين أحياناً...يُريحُ قدمَه اليسرى بعد اليمنى محاذراً مع كل ذلك سقوطَ الصينية...ثم ينادي: كعك طازة...طازة ياكعك...

صلبتْ الشمسُ كبِد السماء واحتلَّتْ قلبها الرمادي، مُرسلةً أشعتها الحارة... فسخن الكعك ونجا صاحبهُ من أذاها: فالصينية تظلّله وتحميه من لظاها... وتدنو الأيدي الطرية في بطءٍ من عبد الله... مما يُحتّمُ عليه أن يحني الجذع قليلاً ليتسنى لليد الممدودة تناول الشهي من الكعك ثم تنقدُ البائعَ خمسَ ليرات يودعها عبد الله بسرعة في بنطاله الرث القديم...

و يتذكرُ عبد الله فجأة أنه لم يتناول فطوره بعد.. وأن جوفَهُ خاوٍ... كيف تاه عن باله أن يأكل صباحاً قبل رفع الصينية على رأسه؟!...ها هم الأطفال يلعبون في ملعب المدرسة... إنه يراقبهم وغداً سوف يلبس حذاءه.. أليس هو صبيٌ مثلهم؟! إنه يقاوم خواء الأمعاء ثم ينادي : طازة يا كعك.

كان يمنّي النفس بأكل كعكة واحدة... كيف يتناولها وأبوه العجوز ، ذلك الحِلفُ البدين يدفعُ باب الكوخِ صباحاً صائحاً به، لاعناً إياه لإستغراقه في النوم، منتهراً إياه لكي ينهض بسرعة فالساعة شارفت على السابعة... وعليه أن يسارع الى فرن الحاج حسن فران ليملأ الصينية كعكاً.

يدعكُ الصبي عينيه المثقلتين بالنعاس بالرغم من صراخ والده في الخارج... يتمطّى بدنهُ الطريُّ فوق الجحش الخشبي وتدفعه رغبة عارمة للبكاء، إذ تعتري الرأس الصغير ذكرى أمه الحنون... كانت تدافع عنه كثيراً وتتصدى لأبيه...

لقد فقدها منذ ثلاثة أعوام... الجيران يعزّونه ويقولون له إن كل حي مائت... الصينية فوق رأسه... ثلاثون كعكة في خمس ليرات تساوي مائة و خمسون ليرة... إذن لا بد للكعك أن يباع بالكامل وأن يأتي عبد الله بالمبلغ دون نقصان. فالنقص يؤدي الى الضرب المبرح، وإن باع كعك الصينية بالتمام و الكمال، فصينية غيرها بانتظاره!... ويبدأ عبد الله بالتجوال في الشوارع المكتظة بالناس وبالتلاميذ الذين يهرعون الى مدارسهم خوفاً من العصا إن حصل تأخيرٌ في الدخول الى "المعتقل" :

فالشبه يكاد يكون تاماً، أيام زمان، بين والد عبدالله و الناظر أو المدير: العصا غليظة، والصوت أجش، والتقريع شديد والعقاب لابد حاصل... بفارغ الصبر ينتظر عبد الله خروج التلاميذ من صفوفهم : إنها الساعة العاشرة و النصف وقد حان موعد الفرصة... ها هي الأبواب تُفتح والصبية يتدافعون ويهرعون نحو البوابة الحديدية المقفلة بأمر من الحاجب "أبو علاء" لشراء الكعك، الترمس، الغرَيْبة (1) أو البرازق...

يدق الجرس معلناً إنتهاءَ الفرصة فيخلو المكان سريعاً لتنحو قدما عبدالله نحو مكان آخر بخُطى بطيئة ، فيلدغُ الإسفلت الحار بطن قدميه ليِسرِعَ مرة و يُبطئ مرة "لو لبست حذائي... ألم يكن ذلك أفضل؟!.." لا ..لا فالحذاء للعيد!...

تحسس عبد الله جيبه الخلفي... لقد امتلأ بالنقود ... والآن لا بد له من إلتهام كعكة، فالجوع يكاد يفتك بالجوف الخاوي... لكن النقود ستنقصُ خمس ليرات... لا يهم سيقول لأبيه أنه لم يأكل صباحاً وعليه بالتالي أن يحسم ثمن الكعكة من مصروفه...وهل ثقة أبيه أهم لديه من صراخ بطنه؟ أهم من بدنه المنهك؟ وهل نقود أبيه أفضل من راحة جسده؟ إنحنى عبد الله أمام أقرب عربة خضار فارغة ليضع الصينية فوق سطحها... دفع الصينية برفق فاحتلت مكانها بهدوء: إنها فارغة إلا من كعكتين... واحدة سليمة والثانية مكسورة .

جلس فوق حافة الرصيف... أخرج الفلوس من جيبه الخلفي... أحصاها في حضنه: مائة وأربعون ليرة ... أحصاها مرة ثانية ، فربما يعثر على زيادة و يكون للجوف الفارغ حصة .. لا والحمد لله! العدد سليم ومائة و أربعون ليرة بالتمام والكمال...حمل الصينية وعاد أدراجه الى الكوخ الوضيع، مقر أبيه الدائم... الجوفُ الخاوي يؤلمُه، الصمتُ يحتويه وعينُ الشمس تُبصره.